خواطر في المحبّة

المتروبوليت سابا (اسبر)

في أحد التهيئة الثالث الذي يسبق الصوم الكبير، تقرأ الكنيسة علينا، من إنجيل متّى، النصّ الذي يدين الله فيه الناس في اليوم الأخير، بمقدار أعمال المحبّة التي فعلوها تجاه المحتاجين، الذين وحّدهم المسيح بنفسه، عندما أجاب السائلين: "بي فعلتم." يقول النص الإنجيلي: "كنت جائعاً فأطعمتموني، عطشاناً فسقيتموني...إلخ" (مت٢٤).

هل يُختصر هذا المقطع الإنجيليّ بمجرّد إطعامٍ وإكساءٍ وإرواءٍ وزيارةٍ وافتقادٍ؟ أم يؤكّد على أنّه يتوّجب على شخصياتنا البشرية المخلوقة على صورة الله أن تثمر هذه الأفعال المباركة تلقائياً، جرّاء نم علاقتها بالله؟ هل الأمر مجرّد حضّ على أعمال الخير أم أمرٌ يخصّ بنية الكيان البشري؟

ألقى القدّيس صفرونيوس (أسكس) محاضرة في جامعة أكسفورد. وفي نهاية المحاضرة قال مدير الجلسة: "لدينا مجال لسؤال واحد إضافي". فوقف أحد الحاضرين في آخر القاعة وقال: "لو تُحّدثنا، أيّها الأب صفروني، عمّا هو الله؟". فأجابه القدّيس بإيجاز شديد:"أخبرنا أنت أولاً ما هو الإنسان؟"

أصاب القدّيس صفروني بكثافة شديدة في جوابه. فالله والإنسان سرّان متداخلان بحيث لا يمكن فهم الواحد من دون الآخر. فطالما أنّ الإنسان مخلوق على صورة الله فثمّة علاقة بنيوية بينه وبين الله. وإذا ما كان الله محبّة فالإنسان يجب أن يكون محبّة أيضاً.

غالباً ما نتصّور أنّ صورة الله التي فينا تستدعي علاقة عمودية بيننا وبين الله. نعني بالعلاقة العمودية كلّ أفعال العبادة المختلفة القائمة بين الإنسان والله. هذه الصورة صحيحة ولكنّها غير كاملة، فكوننا مخلوقين على صورة الله يعني أنّنا مخلوقون أيضاً على صورته الثالوثية. وتالياً فإنّ الصورة الإلهية التي فينا، [مع أنّها أظلمت بالسقوط، إلا أنّها لم تُمحى أو تزول] تحّثنا على عيش المحبّة وعلى أنّنا نوجد بالمحبّة وبالمحبّة فقط.

لنتعمّق قليلاً في سرّ الثالوث. فآباء الكنيسة المعروفون بالكبادوكيين، (بالأخصّ، الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي)، يستخدمون لفظة "كينونيّا" (κοινωνία) اليونانية عندما يتكلّمون على الله. تعني هذه اللفظة: شركة، رابطة، علاقة. فأقانيم الثالوث القدّوس في علاقة حبّ متبادلة، في شركة مستمرة وتامّة. ليست محبّة الله محبّة ذاتيّة، بل محبّة منفتحة، متبادلة، متشاركة.

صورة الله التي فينا تدفعنا إلى التفكير بالعلاقة الأفقية أيضاً، أي بعلاقتنا مع الآخرين. فعلينا أن نحيا في محبّة متبادلة مع الآخرين، محبّة مشارِكة للآخرين، وذلك على صورة المحبّة الثالوثية المتبادلة بين أقانيم الثالوث.

لنذكر أنّ الصليب يتكّون من قطعتي خشب متصالبتين؛ إحداهما عمودية والأخرى أفقية. لا يكتمل الصليب بواحدة من دون الأخرى. فإذا ما أردنا أن نحيا بحسب الله والإنجيل فلابدّ لنا من عيش العلاقتين: العمودية والأفقية.

غالبا ما نقع في فخ نسيان العلاقة الأفقية واعتبارها مجرّد واجبات علينا، كمسيحيين صالحين، تقديمها للمحتاجين. غير أنّ امتلاء المؤمن من الله بعلاقته العمودية، تجعله ينفتح على الآخر في علاقة أفقية فيها بذل ذات، لا مجرّد قيام بواجبات محدّدة. بقدر ما نعاشر الله تفيض محبّته فينا على الآخرين. لا تنفصل محبّتنا إيّاه عن محبّتنا للآخرين، لا بل تنعكس فيهم وعليهم.

جاء في كتاب "أخبار آباء البرّية" ما يلي:

> سأل الأنبا ثيوذورُس الفرمي الأنبا بامبو، قائلاً: 'قُلْ لي كلمةً.' فقال له بعد جهد: 'اذهب يا ثيوذورُس وليكن عندك تحّنن على الكلّ؛ فالتحّنن يسمح لنا أن نتكلّم مع الله بحرّية.'

وجاء في تعاليم القدّيس اسحق السوري:

> أوصيك يا أخي أن تكون كفّة الرأفة راجحة دائماً فيك، حتّى تشعر في قلبك بالرأفة ذاتها التي يكّنها الله للعالم.

يقول أوليفييه كليمان:

> "ليســت المحبّة (الأغابي) نزوةً عاطفيةً وانجذاباً جســدانياً، سرعان ما يزولان، ولا يقتربان من الالتزام والإرادة. بل هي وعي محبّة الله للإنسان الآخر. وحـده الله قـادر على أن يجعلنـا قـادرين على أن نفهم قريبنـا بحسـب مشـاعر الروح القدس وحَدْسـه، فندرك فيه كياناً شـخصياً غير قـابل للانتقاص، بل يتجاوز الحـدود والأخطاء، ويتجـاوز حتّى الخيبة التي نكون قد شـعرنا بها للحظة. الآخر مخلوقٌ على صـورة الله، وليس على صورتنا."[1]

وجاء في كتاب القديس ذياذوخُس فوتيكي "مائة مقالة في المعرفة الروحية،" هذا الشرح العملي الجميل:

> "متى بدأنا نشـــعر بغزارة فيض محبّة الله، نبدأ روحياً، بمحبّة القريب أيضاً. فإنّ هذه هي المحبّة التي تتكلم عنها الكتب المقدّسة لأنّ المودة بحسب الجسد تنتفي بيسر فائق لأقل سبب يطرأ، إذ ليس رباطها رباط الحسّ الروحي. هكذا، إذاً، حتّى ولو اسـتولى نوعٌ من الغيظ على النفس التي يفعل الله فيها، فإنّها لا تقطع رباط المحبّة مع الآخر بسرــعة، إذ تضـــطرم من جديد بحرارة المحبّة الإلهية، وسرعان ما تعود إلى فعل الفضــيلة وتتوّخى بفرح كبير محبّة القريب، وإن كانت قد قاســت منه عظيم الإساءات أو الشتائم، لأنّها تلاشي، في عذوبة الله، مرارة الخصام بالكلية."[٢]

فهلّا تأملنا في هذا الصـوم الآتي كم أنّ المحبّة متأصلة فينا، وما علينا سـوى إظهارها وتثميرها، فنتجاوز عمل الإحسان والخير في أوقات محدّدة، إلى عيش المحبّة بشكل دائم. هكذا يصـبح إطعام الجائع وإكسـائه والعناية به لا واجباً دينياً أو إنسـانياً، بل تحّنناً بفيض المحبّة التي تعتمل وتتأجج في دواخلنا.

---

[1] Clément, Olivier. The Roots of Christian Mysticism: Text and Commentary. United Kingdom, New City, 2015, p. 278.

[2] مقالة ١٥.